

قيسُ بنُ سعد بن عُبادة أذهى العرب، لولا الإسلام

كان الأنصار يُعاملونه على حَدَاثَةِ سَنَةِ كَزَعِيمٍ..
وكانوا يقولون: «لو استطعنا أن نَشْتَرِيَ لقيسَ لحيةً بأموالنا
لفعلنا»..

ذلك أنه كان أجردَ، ولم يكن ينقصه من صفات الزعامة في
عُرْفِ قومه سوى اللحية التي كان الرجال يتوجون بها وجوههم.
فمن هذا الفتى الذى ودَّ قَوْمُهُ لو يتنازلون عن أموالهم لقاء
لحية تكسو وجهه، وتكمل الشكل الخارجى لعظمته الحقيقية،
وزعامته المتفوقة..؟؟

إنه قيس بن سعد بن عُبادة.

من أجود بيوت العرب وأعرقها... البيت الذي قال فيه
الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إن الجود شِمةُ أهل هذا البيت»..

وإنه الداهية الذي يتفجّر حيلة، ومهارة، وذكاء، والذي قال
عن نفسه وهو صادق:

«لولا الإسلام، لمكرتُ مكرًا لا تُطيقه العرب»..!!

ذلك أنه كان حادّ الذكاء، واسع الحيلة، مُتوقّد الذهن.

ولقد كان مكانه يوم صفين مع علي ضد معاوية.. وكان يجلس
مع نفسه فيرسم الخدعة التي يمكن أن تودى بمعاوية وبمن معه في
يوم أو بعض يوم، بيد أنه يتفحّص خُدعته هذه التي تفتّق عنها
ذكاؤه فيجدها من المكر السيئ الخطر، ثم يذكر قول الله سبحانه:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾...

فيهبُّ من فوره مستنكرًا، مستغفرًا، ولسان حاله يقول:

«واللّٰه لئن قُدِّر لمعاوية أن يغلبنا، فلن يغلبنا بذكائه،

بل بورّعنا وتّقوانا»..!!

إن هذا الأنصارى الخزرجى من بيت زعامة عظيم، ورث

المكارمَ كابرًا عن كابر.. فهو ابن سعد بن عبادة، زعيم الخزرج
الذى سيكون لنا معه فيما بعد لقاء..
وحين أسلم «سعد» أخذ بيد ابنه «قيس» وقدمه إلى الرسول
قائلًا:

«هذا خادمك يا رَسُولَ الله»..

ورأى الرسول في «قيس» كلَّ سمات التفوق وأمائر
الصلاح..

فأدناه منه وقرّبه إليه وظل قيس صاحب هذه المكانة دائمًا..
يقول «أنس» صاحب رسول الله:

«كان قيسُ بن سعد من النبی، بكان صاحب الشرطة
من الأمير».

وحين كان قيس، قبل الإسلام يُعامل الناس بذكائه كانوا
لا يحتملون منه ومضة ذهن، ولم يكن في المدينة وما حولها إلا من
يحسب لدهائه ألف حساب.. فلما أسلم، علّمه الإسلام أن يُعامل
الناس بإخلاصه، لا بدهائه، ولقد كان ابنًا بارًّا للإسلام، ومن ثمَّ
نحى دهاءه جانبًا، ولم يعد ينسج به مُناوراتهِ القاضية.. وصار كلما
واجه موقعًا صعبًا، يأخذه الحنين إلى دهائه المقيد، فيقول عبارته
المأثورة:

«لولا الإسلام، لمَكرت مَكْرًا لا تُطيقُه العَرَبُ»...!!!

ولم يكن بين خِصاله ما يَفوقُ ذِكاؤه سِوى جودِه.. ولم يكن الجودُ خُلُقًا طارئًا على قيس، فهو من بيتٍ عريق في الجود والسخاء، وكان لأسرة قيس - على عادة أسخياء العرب وأثريائهم يومئذ - مُنادٍ يقف فوق مُرتفع لهم وينادى الضيفان إلى طعامهم نهارًا.. أو يُوقِد النار لتهدي الغريب السارى ليلاً.. وكان الناس أيامئذ يقولون: «من أحبَّ الشَّحْمَ، واللحم، فليأت أظْم دُلِيم بن حارثة»...

و «دليم بن حارثة» هو الجد الثاني لقيس...

ففى هذا البيت العريق أُرِضِعَ قيسُ الجود والسماح..
تحدث يوماً أبو بكر وعمر حول جود قيس وسخائه وقالوا:
«لو تركنا هذا الفقى لسخائه، لأهلك مال أبيه»..

وعلم «سعد بن عُبادة» بمقاتلتها هذه عن ابنه قيس، فصاح قائلاً: «من يُعَذِّرنى من أبى قحافة، وابن الخطاب.. يُبْخَلان على ابنى»...!!!

وأقرض أحد إخوانه المُعسرِين يوماً قرَضًا كبيرًا..

وفي الموعد المضروب للوفاء ذهب الرجل يردُّ إلى قيس قرَّضه
فأبى أن يقبله وقال:

«إنا لا نعود في شيء أعطيناه»...!!

وللفطرة الإنسانية نهج لا يتخلف، وسُنَّة لا تتبدل.. فحيث
يوجد الجود توجد الشجاعة..

أجل.. إن الجود الحقيقي والشجاعة الحقيقية تَوْءمان،
لا يتخلف أحدهما عن الآخر أبدًا.. وإذا وجدتَ جودًا ولم تجد
شجاعة، فاعلم أن هذا الذي تراه ليس جودًا.. إنما هو مظهر
فارغ وكاذب من مظاهر الزُّهو والادِّعاء.. وإذا وجدتَ شجاعة
لا يصاحبها الجود، فاعلم كذلك أنها ليست شجاعة، إنما هي نزوة
من نزوات التَّهور والطَّيش..

ولما كان «قيس بن سعد» يُمسك أَعِنَّة الجود بيمينه فقد كان
يُمسك بذات اليمين أَعِنَّة الشجاعة والإقدام..

لَكَأَنَّهُ الْمَعْنَى بِقَوْلِ الشَّاعِر:

إذا ما رايَةً رفعت لِجَدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ
تَأَلَّقَتْ شَجَاعَتُهُ فِي جَمِيعِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي صَاحِبُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم وهو حيّ..

وواصلت تألقاتها، فى المشاهد التى خاضها بعد أن ذهب
الرسول إلى الرفيق الأعلى..

والشجاعة التى تعتمد على الصدق بدل الدهاء.. وتتوسّل
بالوضوح والمواجهة، لا بالمناورة والمُراوغة، تُحمّل صاحبها من
المصاعب والمشاق ما يؤوده ويُضنيه..

ومنذ ألقى قيس وراء ظهره، قدرته الخارقة على الدهاء
والمناورة، وحمل هذا الطراز من الشجاعة المسفرة الواضحة، وهو
قرير العين بما تُسببه له من متاعب وما تحلبه من تبعات...
إن الشجاعة الحقّة تنقذ من اقتناع صاحبها وحده..
هذا الاقتناع الذى لا تُكوّنه شهوة أو نزوة. إنما يُكوّنه الصدق
مع النفس، والإخلاص للحق..

وهكذا حين نشب الخلاف بين علىّ ومعاوية، نرى قيّساً يخلو
بنفسه، ويبحث عن الحق من خلال اقتناعه، حتى إذا رآه مع
«علىّ» ينهض إلى جواره شامخاً، قوياً، مُستبسلًا..

وفى معارك صّفين، والجمل، والنهروان، كان قيس أحد أبطالها
المستبسلين..

كان يحمل لواء الأنصار وهو يصيح :

هذا اللواء الذى كُنَّا نَحْفَ به مع النبى، وجبريلُ لنا مددُ
ما ضَرَّ من كانت الأنصارُ عَيْبَتَه ألا يكون له من غيرهم أحدُ

ولقد ولّاه الإمام «على» حكم مصر..

وكانت عين معاوية على مصر دائماً.. كان ينظر إليها كأثمن
دُرّة فى تاجه المنتظر..

من أجل ذلك لم يكد يرى قيساً يتولى إمارتها حتى جُنَّ جنونه
وخشى أن يَحُولَ قيس بينه وبين مصر إلى الأبد، حتى لو انتصر
هو على «الإمام على» انتصاراً حاسماً..

وهكذا راح بكل وسائله الماكرة، وحيله التى لا تُحْجَم عن
أمر، يَدُسُّ عند على ضد قيس، حتى استدعاه الإمام من مصر..

وهنا وجد قيس فرصة سعيدة ليستعمل ذكاءه استعمالاً
مَشْرُوعاً، فلقد أدرك بفطنته أن معاوية لعب ضده هذه اللعبة بعد
أن فشل فى استمالاته إلى جانبه، لكى يوغر صدره ضد الإمام
على، ولكى يضائل من ولائه له.. وإذن، فخير رد على دهاء
معاوية، هو المزيد من الولاء لعلى، وللحق الذى يُمثله على، والذى
هو فى نفس الوقت مَنَاطُ الاقتناع الرشيد والأكيد لقيس

ابن سعد بن عبادة..

وهكذا لم يُحسَّ لحظة أن عليًّا عزله عن مصر.. فما الولاية،
وما الإمارة، وما المناصب كلها عند قيس إلا أدوات يخدم بها
عقيدته ودينه.. ولئن كانت إمارته على مصر وسيلة لخدمة الحق،
فإن موقفه بجوار على فوق أرض المعركة وسيلة أخرى لا تقل
أهمية ولا روعة..



وتبلغ شجاعة قيس ذروة صدقها ونهاها، بعد استشهاد على
وبيعة الحسن..

لقد اقتنع قيس بأن الحسن رضى الله عنه، هو الوارث
الشرعى للإمامة فبايعه ووقف إلى جانبه غير مُلقٍ إلى الأخطار
بالا..

وحين يضطّروهم معاوية لامتناسق السيوف، ينهض قيس فيقود
خمسة آلاف من الذين حلقوا رءوسهم حدادًا على الإمام على..
وؤثرُ الحسن أن يُضْمَدَ جراح المسلمين التى طال شُحوبها،
ويضع حدًّا للقتال المُفْنى المُبِيد، فيفاوض معاوية ثم يبايعه..
هنا يدبر «قيس» خواطره على المسألة من جديد، فيرى أنه

مهما يكن في موقف الحسن من الصواب، فإن لجنود قيس في ذمته حقّ الشورى في اختيار المصير، وهكذا يجمعهم ويخطب فيهم قائلاً:
«إن شئتم جالذتُ بكم حتى يموتَ الأعجلُ منا، وإن شئتم أخذتُ لكم أماناً»..

واختار جنوده الأمر الثاني، فأخذ لهم الأمان من معاوية الذي ملأ الحبورُ نفسه حين رأى مقاديره تُريحه من أقوى خصومه شكيمة وأخطرهم عاقبة..

وفي المدينة المنورة - عام تسع وخمسين - مات الداهية الذي رَوَّضَ الإسلامُ دهاءه..

مات الرجل الذي كان يقول:

لولا أنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
«المكرُ، والخديعة في النار، لكنتُ من أمكر هذه الأمة»..

مات في سلام، تاركاً للحياة عبيرَ رجل صادق، واضح، جوادٍ، شجاع..

أجل.. مات.. تاركاً وراءه عبيرَ رجل أمين على كل ما للإسلام عنده من ذمّة، وعهد، وميثاق..